

اليسوعيون وحقوق الإنسان في السلفادور

صلاح أبو جوده^٥

في ١٦ نوفمبر ١٩٨٩، قامت جماعة عسكرية، تابعة لحكومة السلفادور، بدخول حرم جامعة أمريكا الوسطى، في العاصمة واقتحمت مسكن الآباء اليسوعيين حيث يُقيم ستة منهم ومعهم طبّاحة وابتها ووا من العمر خمسة عشر عامًا. فنكّلوا بهم جميعًا قبل أن يُردوهم قتل. أسباب هذه الجريمة تعود إلى أن الآباء شجّعوا الحوار الوطني بين الحكومة والثوار. وفي الوقت ذاته، نددوا بالظلم اللاحق بالفقراء وانتهاكات حقوق الإنسان وانعدام العدالة الاجتماعية، تحدوهم روح إنجيلية عالية، مُتحدّين بذلك نظامًا دمويًا فاسدًا وصل عدد ضحاياه في العشر السنوات الأخيرة إلى ٧٠،٠٠٠ ضحية، بينهم رئيس أساقفة السان سلفادور، المونسيور أوسكار روميرو Oscar Romero الذي قُتل سنة ١٩٨٠، والأب روتيليو غرانده اليسوعي Rutilio Grande الذي قُتل سنة ١٩٧٧، وأربعة راهبات من جمعية مارينول Maryknoll.

لا بدّ الآن من إلقاء نظرة، ولوسريعة، على السلفادور وعلى ظروفها الاجتماعية والسياسية التي عاش واستشهد فيها اليسوعيون الستة.

جغرافيًا، سكانيًا، اقتصاديًا

تحتلّ السلفادور مساحة قدرها ٢١،٤٠٠ كلم^٢ وهي تُعدّ من أصغر

(٥) مجاز في إدارة الامهال. دارس في الرهبانية اليسوعية.

بلدان أمريكا الوسطى ومن أكثرها كثافة سكانية، إذ يبلغ عدد قاطنيها إحصائيًا ٥١ مليون نسمة بمعدل ٢٤٠ شخصًا في الكلم الواحد. وتعدادها السكاني ينمو بمعدل ٣٪ سنويًا، الأمر الذي ينعكس سلبيًا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فتقل فرص العمل، وينحدر الإنتاج الخاص والعام، ويزداد الفقر في الأوساط الشعبية. وعلى الرغم من أن الصناعة في السلفادور تحتل مركزًا مرموقًا بالمقارنة مع غيرها من بلدان أمريكا الوسطى، تبقى الزراعة عماد اقتصادها، وهي تقوم بالأكثر على إنتاج البن وقصب السكر بأساليب بدائية لا تساعد على تحسين الإنتاج كميًا ونوعيًا.

ومما يزيد من فقر المزارعين أن بضعة آلاف من المواطنين يديرون أكثر من ثلثي الأرض الزراعية، و١٤٥٠ مالكًا كبيرًا يحتفظون لأنفسهم بخمس الأرض الصالحة، وهم يكوّنون في ما بينهم قوة سياسية لها وزنها. فقد عارضوا سنة ١٩٧٦ مشروعًا للإصلاح الزراعي تقدّم به الرئيس مولينا Molina واضطّروه إلى التخلي عنه.

بداية الحرب الأهلية

قادت الظروف الاجتماعية والاقتصادية المزرية إلى تفجر حرب أهلية سنة ١٩٧٢ بعد أن رفضت المعارضة انتخاب الرئيس مولينا، مُتبعةً الحكومة بتزوير الانتخابات، فكان أن تخلّى عددٌ من القادة عن النضال السياسي والقانوني وتحولوا إلى حرب العصابات. واشتدت الحرب الأهلية ابتداءً من ١٩٨٠، ولم تتوقف بالرغم من المفاوضات التي أجراها الرئيس خوسيه نابوليون دوارته Duarte، الذي خلف مولينا، مع الثوار. وفي ١٦ مارس ١٩٨٩ انتخب رئيس جديد هو ألبرتو كريستيانى Cristiani وهو عضو حزب التحالف الثوري الوطني، الذي يضمّ في صفوفه متطرفين، منهم الرائد دويوبسون d'Aubuisson الذي ارتبط اسمه «بسرابة الموت»، المشيخة الرئيسية باغتيال المونسنيور روميرو، ذلك الاغتيال الذي لم يُحتمل يومًا إلى القضاء.

نتقل الآن إلى عرض وجيز لعمل اليسوعيين في تلك البلاد المنكوبة.

تدقّ المرسلين بعد الحرب العالمية الثانية

مد اتصال بلدان أمريكا الوسطى عن إسبانيا وحتى أواسط الأربعينات، قلّ قدوم المرسلين الأوروبيين إلى تلك البلاد. لكن ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، حتى تدقّ المرسلون من سائر الرهبانيات إلى دول أمريكا اللاتينية والوسطى. ومن بينهم يسوعيون إسبان وصلوا إلى فنزويلا، البرو، البرازيل، السلفادور، غواتيمالا وغيرها. وكان لهم دور أساسي في إعادة بعث الكنيسة اللاتينية - الأمريكية ونشر تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني. وقد بذل المرسلون مجهودًا جبّارًا للتأقلم في بيئاتهم الجديدة، فاعتمد الكثير منهم الهوية المحليّة، ورفض الكثيرون مغادرة بلادهم الجديدة بالرغم من المخاطر والتهديد.

وقد انصرف اليسوعيون الواصلون في سنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٠ إلى تأسيس مدارس عديدة وثلاث جامعات: واحدة في غواتيمالا (جامعة لانديفار Landivar)، وأخرى في ماناغوا، وثالثة في سان سلفادور (جامعة أمريكا الوسطى).

إنّ هذا الاهتمام في إنشاء المعاهد العالية لم يمنح اليسوعيين من اكتشاف البؤس والظلم اللاحقين بالسكان القرويين والقاطنين في الأكواخ بالمدن. فشرعوا في تأسيس سلسلة من المدارس أطلقوا عليها اسم «إيمان وفرح» Fe y Alegria. ولدت هذه السلسلة في فنزويلا وما لبثت أن امتدّت لتشمل عددًا كبيرًا من دول أمريكا اللاتينية. والهدف من هذه الحركة هو تأمين مدارس كاثوليكية للفقراء الذين يُعاونون في إنشائها. وللإبقاء على عملها يتعاون مع اليسوعيين رهبانيات مختلفة. ومن بين اليسوعيين السّنة الشهداء، كان الأب جواكين لوبيز مدير مدارس «إيمان وفرح» في السلفادور.

وقبل أن نختم كلامنا الموجز في عمل اليسوعيين، نتوقّف قليلاً عند الدور المميّز لجامعة أمريكا الوسطى. فقد مثلت هذه الجامعة دورًا جبّارًا في رفع المستوى التعليمي في البلاد. وتمتفظ إلى اليوم بسمعة رفيعة لما تقلّمه من تكوين

فكري وأخلاقي وأكاديمي إلى الطلاب الذين وصل عددهم إلى ٦٢٠٠ والذين وجدوها بديلاً لجامعة الدولة المشبعة بالأفكار الماركسيّة. وكان لاكتشاف اليوس وقلة العدالة انعكاسه على أسلوب التدريس فيها، فاهتمت بتنمية الحس بالمزويّة الاجتماعيّة والوطنيّة والسياسيّة، وقامت بأبحاث تَمَسُّ مباشرة أهمّ مشاكل البلد وأكثرها حساسيّة، فأصدرت، على سبيل المثال: دراسة حول تزييف الانتخابات سنة ١٩٧٢، وأعلنت عن استعدادها للمساعدة في برنامج الإصلاح الزراعي الذي بادرت إليه الحكومة سنة ١٩٧٦ وأسقطه أصحاب الاملاك الخاصّة كما سبق أن ذكرنا.

موقف الكنيسة / موقف العالم

إنّ هذه المأساة التي يعيشها الملايين من الناس، يزيدُها تساؤلاً موقف الدول وموقف البعض في الكنيسة. فمن الوهم الظنُّ أنّ كلّ كنائس أمريكا اللاتينيّة متّحدة وبحماسة في الكفاح من أجل العدالة والسلام. فالكثيرون غير مباليين لا يريدون المخاطرة، والبعض الآخر لا يُعِمُّه الظلم بقدر ما يُعِمُّه إبعاد الخطر الشيوعي. وفي حين كان بعض المسيحيّين، وعلى رأسهم رجال الدين، يتظاهرون في أوروبا والولايات المتّحدة يعدّ قتل اليسوعيين الشّنة، مطالبين العالم بمقاطعة النظام الديمويّ في السلفادور، أعلنت الولايات المتّحدة أنّها وافقت على مساعدة عسكريّة لنظام السلفادور بقيمة ٨٥ مليون دولار، مع العلم بأنّ مساعداتها له بلغت ٣،٥ بليون دولار، معظمها للجيش الذي يدرّبُه خبراء أمريكيّون.

أمّا اليسوعيون في السلفادور وعددهم ٧١، فكان ردّهم على الجريمة بسيطاً وواضحاً: «إنّ في موت أولئك اليسوعيين الشّنة والمرأتين اللتين كانتا معهن، انضمام إلى أكثر من ٧٠،٠٠٠ إنسان قُضي عليهم في حرب أساسها وسببها انعدام العدالة الاجتماعيّة. لقد عمِلَ رفاقنا من أجل سلام مبنيّ على حقوق الفقراء، وفي موتهم شاركوا قلم الكثيرين من فقراء السلفادور الذين اغتيلوا لأنهم نَشَدُوا الحرّيّة عن طريق أساليب سليمة. ونحن واثقون بأنّ سبب اغتيال رفاقنا هو ارتباطهم بالعمل من أجل السلام والعدالة. نحن نرفض أن

تذهب نصحية بحوثنا غيتا. - من فسادنا واقع - احرب و تسع عمل من
اجل حل سياسي للصراع عن طريق الحوار، يؤمنان طريقنا أفضل لوطننا
المبطل.

إن رفقانا السعة قد بذلوا قصارى جهدهم في عمل فعال من أجل سلام
عادل قائم على الحوار ومبني على احترام حقوق الفقراء وكرامتهم. وأتينا على ثقة
بأن موتهم سيكون البذار لعمل جديد من أجل السلام في هذه البلاد.

إن رفقانا الثمانية «أغتسلوا ويئسوا ثيابهم في دم الحمل» كما فعل من
قبلهم أوسكار روميرو وروجيليو غرانده، وأركثافيو أورتييز وكهنة آخرون كثيرون
وقبل كل ذلك، الكثير الكثير من المسيحيين المجهولين الذين بذلوا حياتهم
بتواضع وقر تضامنا مع الذي يتألمون أكثر من سواهم في هذه البلاد. عسى أن
تكون هذه الجماعة من شهداء السلفادور وقديسيه الحافظ لنا لنبقى على التزامنا
في سبيل السلفادور «لتكون له الحياة وتكون له أوفر».^(١)

إن التضامن والدعم، خصوصاً في أدق الظروف وأحرجها، مع كل مسمى
يهدف إلى حرية الفقراء التامة بكل ما تحمله من أبعاد اجتماعية واقتصادية
وسياسية وثقافية، هي الخطوة الأولى الواجب علينا جميعاً اتخاذها:

«إذا سرنا بصبر واتضاع مع الفقراء، تعلّمنا السبيل إلى مساعدتهم بعد أن
نكون راضين بقبول المساعدة منهم أولاً. فبدون هذه الميزة الصابرة معهم،
يكون العمل من أجل الفقراء والمحرومين على تناقض مع نوايانا وبعننا من
الإصغاء إلى طموحاتهم، ومن توفير الوسائل التي تسمح لهم أن يحدّوا
مصيرهم الشخصي والجماعي». بالخدمة الوضيعة تُتاح لنا الفرصة لنقودهم إلى
أن يكتشفوا، في وسط مصاعبهم وصراخهم، يسوع المسيح الحيّ والفعال بقوة
روحه. بذلك يمكننا أن نكلّمهم عن الله أبينا، الذي يصلح الإنسانية بإقامتها
في مشاركة أخوية صادقة».

(المجمع العام الثاني والثلاثون للرهباتية اليسوعية، قرار ٤، رقم ٥٠)

(١) بعد الاختيال، تطرّف أكثر من ٣٠ يوهياً من سائر البلدان للعمل في السلفادور، وبالعمل تم
قبول ستة منهم ليعطوا على اللتين هُيوا.

